فضل؛ الفلاّح الفقير، الذي «لا أرض ولا مَيْ... والذي يعمل في المعاصر و... كان من أول الذين طلعوا الى الجبـل»[١٥٣]، والعائد لتوه من هناك، بعد أن «جاء المكتوب من ملوك العرب، ونزل الرجال الى بيوتهم»[١٥٤] يجلس على عتبة دار تقع في آخر الساحة المحتشدة بالناس، ممزق القدمين والثياب، «متعباً ومستنزفاً حتى آخر أنفاسه»[١٥٥].

وحين يأخذ الحشد بالتصفيق لعبدالمولى ـ لاحظ مدلول الاسم ـ تكون أم سعد؛ الفتاة الصغيرة الواقفة بجوار فضل ـ لاحظ مدلول الاسم أيضاً ـ قد سمعت فضلاً يقول: «ولكو، إسا أنا الذي تمرّغت قدماه، وهذا الذي تصفقون له»[١٥٦].

هذه الحادثة الدالة، وهذا التضاد المكاني بما ينطوي عليه من مدلولات تستمد اشعاعها من تناقض الادوار بين الرجلين: الذي كان في الجبل، عالياً في مقاومة الاحتلال والغزو، يصير على العتبة، والذي كان هاربـاً، بل ومتعـاوناً مع العدو، يصير على المنصة، فيجني ثمار الهزيمة التي يسمونها انتصاراً! يصفق له الحشد، كانت دائماً في ذاكرة أم سعد التي تقول: «لم أكن أذكرها كل يوم، ولكنها كانت في رأسي ، وحين جاء مكتوب سعد جاء الاثنان معاً، عبدالمولى وفضل...»[١٥٧]. إن أم سعد لا تريد لعبدالمولى ـ النموذج ـ ان يعود مرة أخرى بعد عشرين سنة، وهي إذ تؤكد أنه، بطريقة أو بأخرى، قد قتل فضلاً ـ النموذج الآخر ـ فإنها لاتريد له ان يقتله مرة أخرى. وعلى هذا النحو يكون فضل مستمراً في ليث، ويكون عبدالمولى مستمراً بحضوره وأمثاله، وتدرك أم سعد ان هؤلاء يتواصلون مثلما يتواصل أولئك، وترى، واصلة بينها وبين فضل، أن هذا الاخير الذي «ركبوا على ظهره في المعصرة وفي الجبل، لو جاء الى المخيم لركبوا أيضاً على ظهره»[١٥٨]. وترى أنه كان أحسن لفضل أن «يظل في الجبل»[١٥٩]. وتتساءل: «آه يا ابن العم! لو يومها قام فضل عن العتبة وطخّ عبدالمولى، أما كانت هذه المشكلة قد انتهت؟»[١٦٠]. وهنا يلوذ الراوي بالصمت ازاء أم سعد، غير ان صوته يأتينا، متجاوباً مع رؤية أم سعد، ومؤكداً قولها في نفسه: «لو حدث ذلك لما حدثت أشياء كثيرة، ولما أمضت هي نفسها عشرين سنة في المخيم»[١٦١]. ويعود الراوي ليؤكد لأم سعد، ما تولّد في وجدانها وهي تصغي لرسالة سعد، وتتذكر فضلاً وعبدالمولى: «إنه يريد ألا يجعل من ليث، فضلاً، آخر...»[١٦٢]. ويأتي صوت أم سعد، حاملاً الامر الى مسؤولية يتوجب على المثقف الثوري أن ينهض بها، فتقول للراوي وهي تلمح الى قوله «لو ظل في الجبل، يا أم سعد، لما استطاع عبدالمولى أن يقيم الحفلة»[١٦٣] تقول: «لم يقل أحد ذلك كله لفضل المسكين... فلماذا لا تقوله أنت الآن، أنت الذي تعلمت من الكتب والمدارس، لماذا لا تقوله لأهل ليث؟»[١٦٤].

إن هذا التجاوب العميق في الرؤية بين أم سعد والراوي؛ المثقف الثوري، والتداخل المتواصل لصوتيهما على امتداد السرد الروائي، وهو التداخل الذي يؤكد أن الرواية تنهض على إقامة حوار مفتـوح، ومتفاعل، بين أم سعد؛ صوت الطبقة المسحوقة، والراوي؛ النموذج للمثقف الثوري ذي الاصول البرجوازية، يمثل مدخلاً مهماً لقراءة علاقات المكان ومدلولاتها، في هذه الرواية عموماً، غير أن هذا التجاوب الرؤيوي يحوز على أهمية خاصة في قراءة «بيت الراوي» نفسه، وهو البيت الذي يمارس حضوره مع حضور الكلمة الاولى في السرد، كما بينا، والذي يمثل نموذجاً وحيداً، وفريداً في السياق الروائي الخاص بغسان كنفاني، وبخاصة في تجسيده لأماكن المنفى، سواء في إطار حيزها الاول: داخـل الوطن، أو حيزها الثاني: خارج الوطن. فلنذهب الى قراءة هذا البيت، والى محاولة الكشف عن علاقاته ومدلولاتها.